﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من توحيدِ المرسِلِ إلى بيان وظيفة الرَّسول

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة الموقفَ مِنَ الشِّرك، وأثبتت التَّوحيد للّه تعالى وحده؛ ناسب الانتقال من تقرير صاحبِ الرِّسالةِ المستحقِّ للعبادةِ، إلى بيانِ وظيفة الرَّسول في التَّبليغ عن اللّهِ تعالى بشيرًا ونذيرًا للخلق أجمعين، وهو كذلك انتقالٌ من إبطال ضلالِ المشركين في أمر الرُّبوبيَّة إلى إبطالِ ضلالِهم في شأنِ صدق الرَّسولِ ﷺ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: (رسل) أصلٌ يدُلُّ على الانبعاث والامتدادِ، فالرِّسل: السَّير السَّهل الذي فيه استرسالٌ ولينٌ[2]، وأصلُ الرِّسل الانبعاثُ على التُّؤَدَة[3]، والرَّسولُ بمعنى الرِّسالةِ[4]، وتارة لمتحمِّل القول والرِّسالَةِ، والرَّسولُ يقال للواحد والجمع، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: 128]، وللجمع: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، والإرْسالُ يقال في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكونُ ذلك بالتَّسخير، كإرسال الرّيح، والمطر، نحو: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ [الأنعام: 6]، وقد يكونُ ببعث مَن له اختيار، نحو إرْسالِ الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣﴾ [الشعراء: 53]، وقد يكونُ ذلك بالتَّخلية، وترك المنع، نحو قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197 - 198.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(3) الأصفهاني، المفردات: (رسل).
(4) الخليل، العين: (رسل).

أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ [مريم: 83]، والإرْسالُ يقابل الإمساك، قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: 2][1]، والمقصودُ بالآية: بعثُ محمَّدٍ ﷺ برسالة من ربِّ العالمين.

2) ﴿كَآفَّةٗ﴾: (كفف) أصلٌ يدلُّ على الجمع والإحاطة، كِفافُ الثَّوْب: نَواحيه، والخَيّاطُ يَكُفُّ الثَّوْبَ، ويقولون: النّاسُ كافَّةً، أي: كُلُّهم، مَعْناه داخِلٌ في الكِفافَة[2]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: 36]، بمعنى: قاتلوا المشركينَ محيطين بهم[3]، وقيل: كافّينَ لهم كما يقاتلونكم كافّين، وقيل: معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة، وذلك أنَّ الجماعةَ يقال لهم: الكافَّة، كما يقال لهم: الوازعة لقوَّتهم باجتماعهم[4]، ومعنى قوله تعالى هنا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾، أي: إلى النّاس أجمعين، أو بمعنى: كافًّا لهم عن المعاصي، والهاءُ فيه للمبالغةِ كقولهم: راوية، وعلّامة، ونسّابة.

3) ﴿بَشِيرٗا﴾: (بشر) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيء مع حسنٍ وجمالٍ، فالبشرةُ ظاهرُ جلد الإنسان، وسُمّي البشرُ بشرًا لظهورهم، والبشير: الحسنُ الوجهِ، والبشارةُ: الجمالُ[5]، والبِشارةُ: ما بُشِّرْتَ بهِ، والبَشيرُ: المُبشِّر بخيرٍ أو شرٍّ[6]، وقوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾، أي: مُبشِّرًا بدين الإسلام، ومبشِّرًا بنعيم الآخرة للَّذين يؤمنون بهذا الدّين.

4) ﴿وَنَذِيرٗا﴾: (نذر) أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ، ومنه الإنذارُ: الإبلاغُ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف، وتناذروا: خَوَّفَ بعضُهم بعضًا، ومنه النَّذرُ: وهو أنَّه يخاف؛ إذا أخلفَ[7]، فالإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشير إخبارٌ فيه سرورٌ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل: 14]، ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: 13]، والنَّذيرُ: المنذرُ، ويقعُ على كلِّ شيءٍ فيه إنذارٌ، إنسانًا كان أو غيره، ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [نوح: 2]، ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: 89]، قال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾

(1) الأصفهاني، المفردات: (رسل).
(2) ابن عبّاد، المُحيط في اللّغة: (كف).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كف).
(4) الأصفهاني، المفردات: (كف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(6) الخليل، العين: (بشر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).

[النجم: 56]، أي: من جنس ما أُنْذِرَ به الذين تقدَّموا[1]، وقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، أي: يُنذرهم عقابَ اللهِ، ويُخبرهم بالأعمال الموجبة له.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عالميَّةُ رسالةِ النَّبيِّ محمَّد بين البشارة والنذارة

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد أُرسِلَ برسالةِ الإسلامِ للعالمين أجمعين، وليست قاصرةً على قوم أو أمَّةٍ معيَّنةٍ، فهو بشيرٌ لِمن يؤمن، ويعمل صالحًا، ونذيرٌ لِمن يعصي اللهَ، ولا يتَّبع هداية النَّبيِّ ﷺ، ومع ذلك، فإنَّ أكثرَ النّاس لا يُدركون عِظم شأن هذه الرِّسالة، فيُنكرونها، أو يُعرضون عنها، وتؤكِّدُ الآيةُ عالميَّة الرِّسالة، وأنَّ النَّبيَّ هو رسولُ اللهِ إلى جميعِ البشرِ، وأنَّ البشارةَ تعني: إخبارَ النّاسِ بالخير، بينما النِّذارة: هي تحذيرُهم من عذابِ اللهِ، وأنَّ اللهَ أرسل النَّبيَّ لتعميم الدَّعوة، وإبراز أهمِّيَّة العمل في ضوء الرِّسالة، محذِّرًا مِن الإعراضِ عنها[2]، وفي هذه الآيةِ إثباتُ رسالةِ محمَّد ﷺ على منكريها من العربِ وإثبات عمومِها على منكريها مِنَ اليهودِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ اختلافِ أسلوبِ الكلامِ مِنَ الأمرِ إلى الإخبارِ:

التَّعريضُ بإبطالِ مزاعم المشركين

اختلف أسلوبُ الكلامِ مِنَ الأمرِ بمحاجَّة المشركين إلى الإخبار برسالةِ النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ تشريفًا له بتوجيهِ هذا الإخبار بالنِّعمة العظيمة إليه، ويحصلُ إبطالُ مزاعمِ المشركين بطريق التَّعريض[4]، مع ما فيه مِن قطع المحاجَّة مع المشركين، للإشعارِ بأنَّ تقريرَ الحقِّ في بيانِ صدق الرَّسول، ومنزلةِ الرِّسالة هو الأَولى بالمقامِ.

(1) الأصفهانيّ، المفردات: (نذر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197 - 198.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 197 - 198.

نوعُ الواوِ ومعناها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ استئنافيَّةٌ؛ إذِ استأنف بموضوع الرِّسالة مخاطبًا رسولَهُ ﷺ في كونِهِ قد أُرسِل للنّاس كافَّة.

نوعُ (ما) ودلالتها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ حرف نفي، وقد أفادت نفيَ عمومِ الإرسال، ليعمَّ كلَّ إرسال متصوَّرٍ، وليتحقَّقَ بعد ذلك في المثبت بعد أداة الاستثناءِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإرسالِ:

عالميَّةُ الرِّسالة وسلاسة التَّبليغ يُناسبه لفظُ الإرسال

استعملَ النَّظم الكريم مفردة الإرسالِ دونَ البعثِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾؛ ليُعبِّر عن مهمَّة الرِّسالة الَّتي كُلِّف بها ﷺ خاصَّةً، فتومئ هذه المفردة إلى أنَّ الإرسال للنّاس كافَّةً كان بحكمة، فهو يدلُّ على السلاسةِ والانتظام والقصد والامتداد، فهو إرسالٌ عامٌّ مقصود، والسّياق قدِ اختصَّ بعالميَّة الرِّسالة، وهو ما يُناسبه لفظُ الإرسال.

فائدةُ إسنادِ فعلِ الإرسالِ إلى ضمير العظمةِ:

تشريفُ المُخاطَبِ وتعظيم الخطاب وتشريع المهمَّة

أُسنِدَ فعلُ الإرسال إلى ضمير العظمةِ في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ لتشريفِ المُخاطَبِ ﷺ، ولتعظيم المهمَّة الموكلة إلى الرَّسولِ ﷺ والرِّسالة التي يحملها، وهي رسالةُ التَّوحيد، واستعمالُ ضميرِ العظمةِ يدلُّ على مكانة الرَّسول والرِّسالة في سياق الوحي، فالإرسالُ هو من قِبَل الله تعالى، وهذه المهمَّة تشمل البشر جميعًا؛ لذا كان إسنادُ الأمرِ إلى خالقِهم ﷻ هو ما يُعطي الرَّسول تلك الشرعيَّة، وهو الذي يجعل التَّبليغَ أقوى في إقامة الحجَّة، وبيان المحجَّة.

بلاغةُ القصر:

استعمل النَّظمُ الكريم أداةَ الاستثناءِ بعد أداة النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾؛ لإفادة الحصرِ والقصرِ،

والقصر قصرٌ إضافيٌّ، أي: دونَ تخصيصِ إرسالِك بأهل مكَّة، أو بالعرب، أو بِمن يَجيئكَ يطلب الإيمانَ والإرشادَ، ويقتضي ذلك إثباتَ رسالتِهِ بدلالة الاقتضاءِ؛ إذ لا يصدق ذلك القصرُ إلّا إذا ثبتَ أصلُ رسالته، فاقتضى ذلك الرَّدَّ على المنكرين كلِّهم، سواءٌ مَن أنكر رسالتَهُ مِن أصلها، ومن أنكر عمومَها، وزعمَ تخصيصها[1]، فنُفيَ كلُّ إرسالٍ عنه ﷺ، ثمَّ أُثبِت إرسالٌ واحدٌ، وهو أنَّه لجميع النّاس، ففيه بيانُ اختصاصِهِ بهذا الإرسال، وأنَّه إرسالٌ رفيعٌ في وظيفته وغايته، فأفادت الآية أنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يُرسَل لأيِّ سببٍ آخر، إلّا أن يكونَ صاحبَ رسالةٍ شاملةٍ وكاملةٍ للنّاس جميعًا، فالإرسالُ كان للعموم، وليس لخصوصٍ مِنَ الأقوام.

شـمـولـيَّـةُ الرِّسالة إثباتٌ لعالميَّتها ودفعٌ لخصوصيَّتها

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿كَآفَّةً﴾ وأوجه إعرابها:

لفظُ ﴿كَآفَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾، هي مِنَ ألفاظ العموم، ووقعت هنا حالًا إمّا من الكافِ، أي: أرسلناك حال كونك كافَّة للنّاس جميعًا[2]، وإمّا من (النّاس) مستثنًى من عموم الأحوال، وهي حالٌ مقدَّمةٌ على صاحبِها المجرور بالحرف، والتَّقديرُ في هذه الآية: (وما أرسلناك للنّاس إلّا كافَّة)، وقُدِّمَ الحالُ على صاحبه للاهتمام بها؛ لأنَّها تجمعُ الذين كفروا برسالتِهِ كلُّهم[3].

مهمَّةُ الرَّسولِ منعُ النّاسِ عن الكفرِ بالحجَّة والبيان

وتحتمل أن تكونَ ﴿كَآفَّةً﴾ اسمَ فاعلٍ من فعل كفَّ، وقيل: مصدر كالعاقبة والعافية، فيكون على حذفِ مضافٍ، أي: (إلّا ذا كافة)، أي: ذا كفٍّ للنّاس، أي: منعٍ لهم من الكفرِ، أو ذا منعٍ من أن يشذّوا عن تبليغِكَ، وإذا كان اسم فاعل؛ فقال الزَّجّاج وغيره: هو حالٌ من الكاف في أرسلناك، والمعنى: إلّا جامعًا للنّاس في الإبلاغِ، والكافَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 199.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 185.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 420، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 198.

بمعنى الجامعِ[1]، وحقُّ التّاء في ﴿كَآفَّةً﴾ هذا أن تكون للمبالغةِ كتاءِ الرّاوية والعلامة[2].

نوعُ اللامِ في القيد ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

رحمةُ الله شَمِلَت جميعَ النّاس

تدلُّ اللّام الدّاخلة على لفظ الناسِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ على التَّخصيص والتَّعليل، فمعنى ﴿لِّلنَّاسِ﴾، أي: هي لأجل كلِّ النّاس وخاصَّةً بهم جميعًا لا ببعضهم، وتؤكِّد (اللّام) في هذا السّياق على أنَّ الرِّسالة جاءت لتلبيةِ احتياجات النّاس وإرشادهم، ممّا يُبرز الشُّموليَّة والعموميَّة في الدَّعوة.

تعريفُ لفظ (النّاس):

تعريفُ لفظ (النّاسِ) في قوله تعالى: ﴿كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ لاستغراقِ جميعِ أفرادِ النّاس، فهي رسالةٌ موجَّهةٌ للنّاس جميعًا دون استثناءِ طائفةٍ من أخرى، وهو ما يُعيد النّاس إلى أصلِهم الأدميِّ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿بَشِيرٗا﴾:

التَّبشيرُ هو أثرُ الخيرِ في قلوب العباد

جاء استعمالُ مفردة ﴿بَشِيرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ لبيانِ ما تتركه هذه الرِّسالة من خير على وجوه من يؤمن بها، فهو يُبشِّرهم بالجنَّة والرِّضوان والنَّجاة من النّيران، ممّا يدعو إلى التَّفاؤل والأمل؛ إذ يدلُّ على ما في الرِّسالة مِنَ الرَّحمة والفضل؛ إذ بُعِثَ ليبشِّر النّاس بالخير.

نكتةُ تقديم البشير على النَّذير:

عند ابتداءِ الدَّعوة البشارةُ مقدَّمةٌ على النِّذارة

قُدِّمَ ﴿بَشِيرٗا﴾ على ﴿وَنَذِيرٗا﴾؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ في دعوة جميعِ الخلقِ، لا في خصوصِ محاجَّةِ المشركين، فلمّا انتقلت عن المحاجَّة إلى الإخبار بعالميَّة الدَّعوة للنّاس؛ بدأ النَّظمُ في ذِكر البشير لبيان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 549.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 593.

أنَّه المقدَّم في الذِّكر عند ابتداء الدَّعوة، وأنَّ الصِّفة الأوضح للرَّسول ﷺ هي صفةُ البِشارة لا النِّذارة، وأنَّ الأصلَ مقدَّمٌ على الفرع.

نوعُ الواوِ ومعناها:

عمومُ الرِّسالةِ للمُقبلين على الدَّعوة والمُدبرين عنها

الواو في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ جاءت لعطفِ المفرد على المفرد، لبيان اجتماعِ هاتين الوظيفتينِ المتقابلتينِ في المكلَّف بالرِّسالة، وأنَّ دعوتَهُ توازنُ بين كونِهِ بشيرًا لمن أقبلَ، وأنصتَ، ونذيرًا لمن أدبر، واستكبرَ، وهو ما يُرشِّح العموم، فهي عامَّة كذلك للنّاس المتَّصفين بالإقبالِ، والمنعوتين بالإدبار.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿وَنَذِيرًا﴾:

الإنذارُ دليلُ التَّكامل والرَّحمة ببيانِ الحقائق على وجهها

استعملَ النَّظم الكريمُ مفردةَ ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ لبيانِ أنَّ التَّبليغ اشتمل على أمورٍ يخافها النّاس، فالنِّذارة إخبارٌ على سبيل التَّخويف، كإنذار البعث والقيامة والحساب والجزاء والنّار، واشتملت مفردةُ النَّذير في دلالتها التَّقابليَّة على التَّكامل في التَّبليغ، والرَّحمة الإلهيَّة، فإنَّ التَّبشير وحدَه قد يخدع الجاهلَ بحقيقة المآل، فكان التَّكاملُ بين هاتين الوظيفتينِ هو الأوثق بعرى الدَّعوةِ، وبمقتضى الحكمة.

فنُّ الطِّباقِ:

في قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فنُّ الطِّباق، فالبشيرُ يُقابلُهُ النَّذير، ونكتة الطِّباق بيان التَّكامل بين الوظيفتين، وأنَّهما جمعتا وظيفةَ الرِّسالة الشّاملة في سياق التَّبليغ الشامل.

نوعُ الواوِ وبيان وظيفتها الرّابطة:

التَّشريفُ برسالةِ ربِّ العالمين يتبعُهُ التَّكليف بتحمُّل صعوبات النّاس أجمعين

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حرف عطف، حيث عطفَتِ الجملة على الجملة السّابقة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وفائدة العطف: بيانُ أنَّ التَّشريفَ الإلهيَّ لنبيِّنا محمَّد ﷺ بالرِّسالةِ، لا يعني استجابةَ الخلق له، فبيَّن له أنَّ حالَ معظم النّاس هو ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ ليُعلمَهُ حقيقةَ

الأمرِ، ولينتقِلَ من بيان مهمَّة الرَّسول ﷺ إلى بيان واقع النّاس، فالواوُ تُعبِّر عن الرَّبط بين وظيفتَي البشارةِ والنِّذارة وما يتبعها من جهلِ النّاسِ، ممّا يُظهرُ تأثيرَ الجهل على استجابتِهم للرِّسالة.

دلالةُ الاستدراك:

(لكنّ) في جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ للاستدراك، وفائدة الاستدراكِ في هذه الجملة رفْعُ ما يتوهَّم من اغترارِ المغترّين بكثرة عددِ المنكرين لرسالتِهِ ﷺ بأنَّ كثرتَهم تغرُّ المتأمِّل؛ لأنَّهم لا يعلمون[1]، وتأتي أداةُ الاستدراكِ؛ لتشيرَ إلى أنَّ ما ذُكِر مِن وظيفةِ البشارةِ والنِّذارة ستواجه بالحالة العامَّة للنّاس؛ إذ إنَّ كثيرًا منهم لا يستجيبون لهذه الرِّسالةِ، وهو ما يؤكِّد حاجةَ البشريَّة للإرشاد والتَّوجيه بالوحي وقيمه.

كمالُ الرِّسالة وشرفُها لا يعني الاستجابة والإيمان

فائدةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿أَكۡثَرَ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالكثرةِ في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ على أنَّ الجهل وعدمَ العلمِ ليس خاصًّا بفئة صغيرةٍ، بل هو سائدٌ عند عموم النّاس - وهو ما يعكس حجم التَّحدّي الَّذي تواجهه الرِّسالة النَّبويَّة في توعية النّاس - ممّا احتاج إلى طباقِ التَّبشير والإنذار؛ ليشملَ أصناف الدَّعوة وشمول أساليبها، ويُظهر الفارقَ الواضح بين الذين يستجيبونَ للحقِّ، وأولئك الذين يُنكرون الحقَّ والرِّسالة، ولا يَعونَ، ولا يستجيبون، وصيغة (أفْعَل) تدلُّ على الكثرة الكاثرةِ والمبالغة فيها، فتوحي الصيغةُ بحجم العمل والمشقَّة التي سيبذلُها مَن أراد تبليغَ الرِّسالة، والعمل وفقَ مقتضيات الإرشاد الإلهيِّ.

أكثرُ النّاسِ يأبَون شرفَ التَّكليف، وينهون عن سموِّ التَّبليغ

توجيهُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

أظهرَ النَّظمُ الكريم لفظَ النّاس في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 199.

﴿ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإعطاء هذه الجملة استقلاليَّةً في المضمون والنَّظم، ولدفع اليأسِ مِن قلب الرَّسول والدُّعاة، فأعلمهم أوَّلًا بوجوبِ التَّبليغ، ثمَّ بواقع النّاس، ليعلمَ أنَّ عليه التَّبليغَ لا الاستجابةَ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾ [الرعد: 40]، ولتكونَ جملةُ الفاصلة مثلًا سائرًا يُستشهد بها على العموم، ويدخل في النّاس الكافرون والمؤمنون، لكنَّ الكافرين حظوا بالأكثريَّة.

الرَّسولُ مأمورٌ بتبليغ النّاسِ لا تحقيق استجابتهم

نوعُ ﴿لَا﴾ ودلالتُها:

أداة ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، نافيةٌ، حيث تُستخدم لنفي العلم عن ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، فهُم لا يعلمونَ بعظيم شأن هذه الرِّسالة، ومكانة الرَّسول عند اللهِ سبحانه، وجيءَ بها لإفادة نفي العموم، فنفت عن الأكثريَّةِ العلم، وتخصيصِ نفْي علمِهم بمصالحهم الأخرويَّةِ جاء من السّياق.

نفيُ عمومِ العلم بمصالحِ العباد الأخرويَّة

فائدةُ إيثارِ نفي العلم على إثبات الجهل:

آثرَ النَّظمُ الكريم نفْيَ العلم لا إثبات الجهلِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ وذلك لزرعِ قيمةِ الهدايةِ والإقبال على الدَّعوة، فنفْيُ العلم ألطفُ من إثبات الجهل، ففي النَّظم تعليمُ الدُّعاة التَّلطُّف بالنّاس عند دعوتِهم، ونفْيُ العلمِ هو علمُ الآخرة.

تعليمُ الدُّعاةِ التَّلطُّفَ بالمدعوّين في الخطاب

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ فعل العلم في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ إمّا لدلالةِ ما قبلَهُ عليه، فهو من قبيلِ الإيجاز، أي: (لا يعلمون ما بشَّرتَ به المؤمنين، وما أنذرْتَ به الكافرين)، أي: (يحسبون البشارةَ والنِّذارة غيرَ صادقتين)، وإمّا أن يكونَ فعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ منزَّلًا منزلةَ اللّازم مقصودًا منه نفيُ صفةِ العلم عنهم على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ

العلمُ المنفيُّ هو علمُ الآخرةِ فهو الأنسبُ بالسّياق

﴿لَا يَعۡلَمُونَۚ﴾ [الزُّمر: 9]، أي: (ولكنَّ أكثر الناس جاهلون قدرَ البشارةِ والنِّذارة)[1].

وإمّا أن يكونَ الحذفُ لإفادةِ العموم، أي: لا يعلمون شيئًا من الأشياء، وهذا بعيدٌ، إذِ المقصودُ نفي ما ورد في السياق، فهو الأنسبُ، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: 6 - 7]، فنفى عنْهم علمَ الآخرةِ، وأثبتَ لهم علمَ الدُّنيا، فيكونُ النَّفي للمقصود بالسياق.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

يغلبُ على الإرسالِ الرِّفقُ والسلاسة، والبعث الإثارة والإيقاظ

يشتركُ الإرسالُ والبعثُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ، وهو توجيهُ الشَّيءِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، ويفترقانِ بأنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، كبعثِ البعيرِ مِنْ مكانِهِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلّا في المواضعِ الَّتي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: 3]، كما أنَّه يجوز أَن يَبْعَث الرَّجل إِلَى الآخرِ لحاجَة تخصُّهُ دونك ودون المَبْعوث إِلَيْهِ كالصَّبيِّ تبعثهُ إِلَى المكتب، فَتَقول: بعثْتُهُ، ولا تَقولُ: أَرْسلتهُ؛ لأنَّ الإرْسال لا يكون إلّا برسالةٍ وما يجْري مجْراها[2]، لذلك فإنَّ الإرسال يتطلَّب وجودَ رسالةٍ أو محتوًى يُنقل، وغالبًا ما يتضمَّن فعلَ التَّواصل بين الأشخاص، بينما البعثُ: يشير إلى إرسالِ شخصٍ أو شيء لأداء مهمَّةٍ معيَّنةٍ، دون الحاجةِ إلى وجود رسالةٍ، فيكون قد بعثه لأداء وظيفةٍ أو غرضٍ معيَّنٍ.

الكافَّة والعامَّة:

تشير (كافَّة) إلى الشُّموليَّة والعموميَّة، حيث تعني أنَّ الشَّيء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 199.
(2) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 289.

يشمل جميعَ الأفرادِ أو الأشياء دون استثناءٍ[1]، ووردت ﴿كَآفَّةً﴾ في هذه الآية؛ للدَّلالة على رسالةٍ تشمل جميعَ النّاس دون استثناء[2]، أمّا (العامَّة)؛ فتشير أيضًا إلى الشُّموليَّة، حيث تشملُ مجموعةً كبيرةً مِنَ الأفراد أو الأشياء، مع إمكانيَّة وجودِ استثناءات[3]، فـ(عامَّة): قد تشير إلى مجموعة من النّاس، وتستخدم في سياقات منوَّعة[4]، لكنَّها لا تعبِّر عن الشُّمول كما في (كافَّة)؛ إذ تحملُ دلالةً قويَّةً على عدم الاستثناء والشُّموليَّة المطلقة[5].

لفظُ (كافَّة) أرسخُ في العمومِ من لفظ (عامَّة) لعدم قبول الاستثناء

التَّخويفُ والإنذارُ:

الإنذارُ تخويفٌ مَعَ إعْلام مَوضِع المخافة من قَوْلك: نذرت بالشَّيء؛ إذا عَلمته، فاستعددت لَهُ، فَإذا خوَّف الإنسان غيره، وأعلمه حالَ ما يخوِّفه بِهِ؛ فقد أنذره، وإن لم يُعلمْهُ ذَلِك؛ لم يقل: أنذرَهُ[6]، فالتَّخويفُ أعمُّ من الإنذار؛ لأنَّ الإنذارَ تخويفٌ بإعلام وإفهام، فالإنذارُ يحمل جانبًا إيجابيًّا وهو تعليمُ النّاسِ موضعَ الخطر، بخلافِ التَّخويف، فيحمل ذلك وغيره.

الإنذارُ تخويفٌ بإعلامِ موضع الخطر والتَّخويفُ أعمُّ منه

(1) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: 1/ 550.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 87.
(3) ابن منظور، لسان العرب: 3/ 65.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/ 154.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/ 174.
(6) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 242.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»